الفصل الأول
الأصول التاريخية للعثمانيين

- الأتراك في العالم الإسلامي
- العثمانيون وقيام دولتهم في الأناضول
- إسلام العثمانيين
- طبيعة إسلام العثمانيين
- الإسلام وأثره في تاسيس دولتهم

الأتراك في العالم الإسلامي

علي الرغم من أن العثمانيين يعودون في أغلبهم إلي أصول تركية نزحت من وسط آسيا إلي الغرب إلا أنه من الواجب التفريق بين الهجرات التركية إلي المشرق الإسلامي وبين تطور هجرة العثمانيين إلي الأناضول.

فالمتواتر عن أصل الأتراك ووجودهم فى المشرق العربي الإسلامى يعود إلى هجرات المغول بقيادة جنكيزخان من وسط آسيا إلى العالم الإسلامى خلال القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى. وبعد وفاة جنكيزخان هاجم هولاكوالخلافة العباسية ودمّر بغداد سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، ووجّه جزءاً من هجومه إلى الأناضول، واصل بعضهم هجومهم إلى شرق ووسط آسيا، واتجه البعض منهم إلى الشام ومصر حتى أوقفهم المماليك وهزموهم فى معركة عين جالوت (١).

على أن الخلفاء العباسيين كانوا ـ قبل هجرة جنكيزخان وأبنائه ـ قد استعانوا بالعناصر التركية فى جيشهم منذ عصر الخليفة المهدى، وظل دور هذه العناصر ينمو على المسرح السياسى فى هذه الدولة حتى بسطوا نفوذهم على الخلافة فى عهد المعتصم.

وطوال قرنين من الزمان ظلت محاولات العناصر التركية من خلال الخلافة العباسية التى كانوا تابعين لها، أو العناصر الطولونية فى مصر، أو الدولة الحمدانية فى الشام، تهدف إلى السيطرة على الأناضول وإضعاف الدولة البيزنطية، واستطاعوا أن يحققوا بعض النجاح خلال القرنين الثانى والثالث الهجريين الثامن والتاسع الميلاديين وحين مالت الكفة لصالح الدولة البيزنطية على حساب المسلمين ارتبط السلاجقة الأتراك

(١) يعود المماليك فى أصولهم إلى عناصر تركية فى الغالب، أنظر: د. أحمد عبد الرحيم مصطفى: فى أصول التاريخ العثمانى، ص١٢.

فى الأناضول بالدولة العباسية ، واستطاعوا خلال القرن الخامس الهجري الحادى عشر الميلادى أن يحققوا سلسلة من الانتصارات دمّروا خلالها أهم المواقع الاستراتيجية البيزنطية ، حتى نجح الزعيم المسلم " ألب ارسلان" في تحقيق نصر ساحق على البيزنطيين بزعامة الإمبراطور" رومانوس" فى معركة "ملاذكرد" عام ٤٦٤ هـ ١٠٧١م التى فتحت الباب للعناصر التركمانية بالتواجد حول المضايق وسواحل بحر إيجه .

والتقت العناصر التركية – التى كانت فى الغالب من الأتراك الغز- مع العناصر التركية التى كانت الدولة البيزنطية قد استجلبتها فى جيشها من قبل فأصبحت هذه العناصر – أى التركية – مع العناصر الوافدة منها ، تشكّل العنصر الغالب فى الأناضول بل وزادت هذه الغلبة للأتراك بعد قدوم هجرة المغول وانتصارهم على سلاجقة الروم فى معركة الجبل الأقرع سنة ٦٤١هـ ١٢٤٣م. وقد شهد القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي المزيد من هجراتهم ، إلى جانب هجرة عناصر فارسية أمام ضغوط الهجرات المغولية ، ولا شك أن ذلك كله قد أدي إلي زيادة العناصر التركية فى الأناضول على حساب الرعايا البيزنطيين .

وقد أقامت العناصر التركية فى الأناضول دولاً عديدةً لهم فى بعض المناطق قبل قيام الدولة العثمانية منذ منتصف القرن الخامس الهجرى الحادى عشر الميلادى مثل:

- دولة الدانشمنديين فى سيواس ٤٦٤-٥٧٠هـ/١٠٧١، ١١٧٤م
- وقام فرع لها بعد ذلك فى ملطية ٥٣٧-٥٧٣هـ/١١٤٣-١١٣٧م
- دولة بني منكوجك فى أزربيجان وكماخ وديوريكى ٤٦٤-٦٥٠هـ/١٠٧١-١٢٥٢م
- دولة بني سلدق فى أرضروم ٤٦٤-٥٩٨هـ/١٠٧١-١٢٠١م
- دولة سلاجقة الروم ٤٧٠-٧٠٨هـ/١٠٧٧-١٣٠٨م

كما قامت بعض الدول التركية فى الأناضول خلال ظهور الدولة العثمانية كدولة أوإمارة صغيرة وقبل أن يعظم شأن العثمانيين ويبتلعون هذه الدول ومن أهمها (١)

- دولة بنى قرسي فى منطقة ميسيا القديمة ٧٠٠-٧٣٧هـ/١٣٠٠-١٣٣٦م
- دولة بني صاروخان فى منطقة ليديا ٧٠٠-٨١٣هـ/١٣٠٠-١٤١٠م
- دولة بني أيدين ٧٠٠-٨٠٥هـ/١٣٠٠-١٤٠٣م
- دولة أمراء دنزلي ٦٧٦-٧٧٠هـ/١٢٧٧-١٣٦٨م
- دولة بني منشا ٧٠٠-٨٢٩هـ/١٣٠٠-١٤٢٥
- دولة بني حميد منطقة بيسيديا القديمة ٧٣٩هـ/ ١٣٩١م
- دولة بني كرميان ٧٠٠-٨٣٢هـ/١٣٠٠-١٤٢٨م
- دولة بني قرمان وهى أقوى دولة بعد السلاجقة ٦٥٤-٨٨٨هـ/١٢٥٦-١٤٨٣م
- دولة بني جاندار ٦٩١-٨٦٦هـ/١٢٩٢-١٤٦١م

على أن ما ينبغى توضيحه هو أن العناصر التركية التى استقرت فى الأناضول أوغيرها قد اعتنقت الإسلام فى أغلبها ، حتى تلك العناصر التى وفدت مع جنكيزخان وهولاكو وأبنائهم قد انضوت فى العناصر الإسلامية جنساً وعقيدةً ، وأصبحت بمرور الزمن جزءاً من الكل الإسلامى لتؤكد تاريخياً قدرة الحضارة الإسلامية على صهر القوى التى احتكت بها جنساً أو حضارةً ، وسواء أكانت قاهرةً أو مقهورةً ، وهو أمر لم تستطعه الحضارات المتتابعة الأخرى على مر مراحل التاريخ الإنسانى .

(١) لمزيد من التفاصيل. أنظر: د. أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدولة العثمانية ، سنة ١٣٩٥هـ/ص٦.

وفى جانب آخر فإن العناصر التركية ، ومن خلال انصهارها فى الحضارة الإسلامية قد اندمجت فى غيرها من الأجناس والعناصر الإسلامية التى واكبتها وعايشتها كالفارسية والعربية وغيرها ، وابتعدت عن التعصب لجنسها الذى لم يبق منه سوى بعض اللهجات التى اندمجت باللغة العربية ، ووجدت ذاتها في تمسكها بالدور الإسلامى فجاهدت باسمه وتحت رايته ، وأصبح إطلاق لفظ الأتراك عليها مرتبطاً باللغة أكثر من ارتباطه بالجنس ، وأصبح ارتباطها بالإسلام هو الأكثر موضوعية من ارتباطها بالجذور التركية العرقية القديمة .

العثمانيون وقيام دولتهم فى الأناضول

أدى الغموض الذى أحاط بنشأة العثمانيين إلى تضارب الروايات التاريخية حول هذه النشأة بل وتسرّبت الأساطير إليها ، ولعدم وجود مصادر ثابتة توضح هذه الفترة فإن المؤرخين قد قبلوا مضطرين هذه الروايات بما تخلّلها من صياغة أسطورية في جانب منها .

وبشكل عام فإن المؤرّخين قد تناقلوا إرجاع أصل العثمانيين إلى قبائل الغز التركية التى اندفعت أمام زحف المغول فى القرن السابع الهجرى أوائل القرن الثالث الميلادى(١) ، فعندما هاجم " جنكيزخان" منطقة كان يحكمها " سليمان" جد " عثمان" مؤسس هذه الدولة اضطر " سليمان" إلى الاتجاه إلى الأناضول التى كانت تعرف ببلاد الروم كي ينضم إلى عناصر سلجوقية كانوا قد أقاموا دولة هناك ودأبوا على الجهاد أو التوسع علي حساب البيزنطيين ، وكان ذلك حوالى سنة ٦١٦هـ . وقيل أن " سليمان" قد

(١) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى : فى أصول التاريخ العثمانى ،ص١٤.

غرق أثناء رحلة استقراره فى الأناضول ، وترك أبناء ثلاثة هم" سنقور تكى" و "كون طوغدى" و"أرطغرل" ، وإن كان البعض قد أضاف إبنا رابعا هو " دندان " .

وتذكر هذه الرواية بأن أبناء " سليمان" قرروا العودة إلى خراسان فيما عدا أرطغرل وأبناؤه- ومن بينهم " عثمان" مؤسس هذه الأسرة – الذين تخلفوا عن العودة وطلبوا من الأمير السلجوقى " علاء الدين" أن يسمح لهم بالتواجد فى بلاده فمنحهم قطعة أرض فنزل فيها عثمان هو ومن معه ، وكان عددهم لا يزيد على أربعمائة أسرة ، فكانت بداية وجودهم السياسى ، وأصبحوا فى خدمة الأمير السلجوقى " علاء الدين" .

وتشير رواية أخرى إلى أن" أرطغرل" فى أعقاب غرق والده وعودة إخوانه ، وجد جيشين يقتتلان ، فاكتفى فى البداية بالمشاهدة ، ثم تدخل لصالح أحد الجيشين حينما استشعر ضعفه وإشرافه على الهزيمة ، وتمكن هذا الجيش من تحقيق النصر بفعل مساعدة فرسان "أرطغرل" ، وفوجئ "أرطغرل" بعد المعركة بأن هذا الجيش من أصل تركى يتزعمه "علاء الدين" سلطان قونية السلجوقى ، فكافأه السلطان " علاء الدين" بأن منحه وقبيلته منطقة " سكود " فى الشمال الغربى للأناضول على حدوده مع الدولة البيزنطية .

وسواء صحّت هذه الروايات أم لا فإن الثابت أن هذه القبيلة قد استقرت فى منطقة " سكود" وأنها شاركت السلطان السلجوقى " علاء الدين" فى الجهاد ضد التتار من جهة وضد البيزنطيين من جهة أخرى ، واكتسبوا مهارة قتالية خلال هذه المدة ، كما أنه كان في طليعة القوات المجاهدة مما دعا السلطان"علاء الدين " لأن يمنح "أرطغرل" لقب أوج بكي أى محافظ الحدود وهو من الألقاب الرفيعة فى هذه الفترة ، كما أنهم لقاء ذلك قد منحوه بعض المناطق المجاورة لإمارتهم مثل مدينة إسكى شهر وهى مدينة قديمة ومشهورة

وفي أعقاب وفاة "ارطغرل" سنة ٦٨٧هـ /١٢٨٨م خلفه فى حكم الإمارة ابنه "عثمان" وأقره عليها السلطان السلجوقى " علاء الدين" ، وبدأ "عثمان" السنة الأولى من حكمه بفتح إحدى القلاع المجاورة له فكافأه السلطان السلجوقى بمنحه لقب بك مع منحه كافة الأراضى والقلاع التى فتحها ، وتحددت بذلك ملامح النظام السياسى الأول لهذه الدولة أو هذا الكيان .

إسلام العثمانيين:

يتجه أغلب المؤرّخين إلى القول بأن العثمانيين قد ظلّوا وثنيين حتى استقروا فى الأناضول ثم تحولوا إلى الإسلام متأثرين بالعناصر السلجوقية المحلية التى كانت مسلمة ثم أنهم شاركوا بعد اعتناقهم الإسلام فى حملات الجهاد ضد الدولة البيزنطية ، في حين يري البعض سبق اعتناقهم للإسلام علي قدومهم معتبرين إسم عثمان نفسه من الدلالات على ذلك .

ويسوق هؤلاء المؤرخون قصة إسلام العثمانيين فى أسطورتين الأولى ترى أن "عثمان" قضى ليلة فى دار أحد الزهاد المسلمين ، وقبل أن ينام جاء صاحب البيت بكتاب فوضعه على رف فسأله "عثمان" ما هذا الكتاب ؟ فأجاب صاحب البيت بأنه القرآن كلمة الله التى أنزلت للناس عن طريق النبى ، وحمل " عثمان" الكتاب وأخذ يقرأ فيه حتى الصباح ، ثم نام فرأى فيما يرى النائم كأن ملاكاً بشّره بأنه وذريته سيعلوا قدرهم لقاء احترام القرآن (١) .

---

(١) يشير المؤرخ التركى محمد فؤاد كوبريلي بأن الرواية عن أرطغرل جد عثمان وليس عثمان ، الدولة العثمانية ت د. أحمد السعيد سليمان،ص٦١.

أما الرواية الثانية فأشارت إلى أن "عثمان"طلب إلى الشيخ"إده بالي "[1] وكان من الزهاد المرموقين بين قومهم ، أن يزوّجه ابنته " مال خاتون" ورفض الشيخ طلبه طوال عامين ، وفى إحدى الليالى رأى " عثمان " فى نومه – أثناء وجوده فى بيت الشيخ- كأن قمراً يخرج من صدر" إده بالي" أو " أدب غالى" ويقع فى صدره هو ، ثم تخرج من سرته شجرة يغطى ظلها الأرض ، وفسر "إده بالى" الحلم بأن أسرة "عثمان" سيعلوا شأنها و تحكم الأرض ويزوّجه ابنته .

وعلى الرغم من إدراك المؤرخين لعدم صدق هذه الروايات لأسطوريتها ، ولتشابه ذكرها عن كثير من الزعماء ومؤسسى الدول كالإمبراطور قنسطنطين فى اعتناقه للمسيحية أو السلطان محمود الغزنوى فى اعتناقه الإسلام وغيرهما ، إلا أن أى من هؤلاء المؤرّخين لم يجد مناصاً من الاعتماد عليها.

وإذا جاز للمؤرخين أن يقبلوا إسلاماً أسطورياً لمؤسس الدولة "عثمان" ، أوجده "أرطغرل" ، فلا ينبغى أن يقبلوا دخول قومه فى الإسلام بشكل جماعى من باب التبعية للزعيم لا من باب التفكر أو القناعة ، فذلك أمر يضعف من شأن إسلام هؤلاء القوم . وإذا نظرنا إلى أن هؤلاء القوم قد تحمّسوا للإسلام وجاهدوا تحت رايته بشكل واضح ، فهل يتفق هذا الحماس مع إسلام بلا يقين أو تعقل وتفكر وتعمق فى الدين ؟ إن هذا الأمر يدعوا إلى إعادة النظر فى الأساطير التي أحاطت بهذه القضية برمتها .

إن مراجعة المصادر الأدبية والتاريخية تشير إلى أمر هام هو أن هذه العناصر التركية التى ينتمى إليها العثمانيون كانت قد تعرفت على الإسلام واعتنقته فى موطنها الأصلى فى آسيا قبل هجرتها إلى المشرق الإسلامى والأناضول حيث كان الإسلام قد

---

(١) تطاق بعض المراجع إسم" أب غالى" على هذا الشيخ

انتشر فى هذه المناطق منذ القرن الثانى الهجرى/الثامن الميلادى ، فقد أشارت بعض مصادر الأدب الفارسى عن انتشار جماعات الفتوة التى كانت تعتنق الإسلام بين الترك فى آسيا الوسطى مثل انتشار جماعة العيّارين فى جنوب منغوليا فى هذه الفترة .

ويعلل انتشار الإسلام فى آسيا الوسطى بأنه يرجع إلى أن الأتراك فى هذه المناطق والذين كانوا يدينون بالديانات الشامانية والبوذية والمانوية قد ناسبهم ما فى الإسلام من واقعية ونزوع إلى حياة الخشونة والفتوة التى كانت تتسم بها طباع بيئتهم والتى كانت تقابل فكرة الجهاد والاستشهاد والجنة التى وعد الله بها شهداء الجهاد فى الإسلام ، وبالتالى إعلاء مكانة الشهيد فى الإسلام التى توافقت مع إعلائهم لمكانة الفرسان والمدافعين عن حياتهم وبالتالي أغرتهم على تقبل تعاليم الإسلام (١) . ويرى البعض الآخر أنه لا يوجد دليل على ذلك ، ويرجعون انتشار الإسلام فى آسيا الوسطى إلى نزوح الكثير من دراويش الصوفية إلى هذه المناطق والذين ركّزوا فى سعيهم لنشر الإسلام فيها على التخويف من العذاب أكثر من تركيزهم على فكرة الجهاد ، وكذلك سلوكهم لأسلوب غير مستفز للعقائد القديمة التى كانت منتشرة و ما يتبعها من تقاليد اجتماعية(٢) .

ويلتقى الاتجاهان فى أن الإسلام كان قد انتشر فى آسيا الوسطى فى فترة مبكرة قبل هجرة الترك إلى الغرب ، وأنهم قد أقبلوا على اعتناقه بشكل فردى منذ القرن الثانى والثالث الهجريين الثامن والتاسع وحتى العاشر الميلادى وأن معتنقيه قد ازدادوا بعد

---

(١) صدقة بن أبى قاسم : سمك العيار ، ت، د. محمد فتحى الريس – القاهرة سنة ١٩٨٣م والعيارون هم جماعة من جماعات الفتوة اتصف بطباع حميدة كالكرم والشجاعة والإقدام وغير ذلك ، وكان يجمعون ما يستطيعون من الأغنياء ويوزعونها بمعيار عادل على الفقراء،وعرفت هذه الجماعة فى الأناضول باسم الآخيين.

(٢) و. بارتولد: تاريخ الترك فى أسيا الوسطى، ت: د. أحمد السعيد سليمان، ص٦٩.

دخول المسلمين إلى بلادهم وبناء العديد من المساجد فيها ، وأصبح ذلك واضحاً فى القرن الخامس الهجرى الحادى عشر الميلادى .

ولما كانت الدلائل تشير إلى اعتناق العثمانيين للإسلام ، وفقا لما سبق ، قبل دخولهم الأناضول فيبقي طرح سؤال عن السبب الذي دعا " عثمان" أن يعلن إسلامه هناك وفقا للأساطير التى كتبت فى عهده وهو الأمر الذى دفع بعض المؤرخين ، أو أغلبهم ، إلى التأكيد على أنه وقومه كانوا وثنيين قبل قدومهم إلى الأناضول ، وأنهم كانوا حديثى عهد بالإسلام ، بل كان ذلك مدخلاً لبعض المؤرخين الغربيين لأن يفسر الأساطير بأنها مجرد محاولة لإصباغ الشرعية على حكمهم بربطهم بالإسلام فى حين أنهم كانوا وثنيين ، وكان جزء كبير منهم من النصارى الترك .

إننا أمام هذه الحقائق التى تؤكد سبق إسلامهم قبل هجرتهم إلى الأناضول لابد أن نفرّق بين اعتناقهم للإسلام وبين إعلانهم لهذا الاعتناق الذى كان يرتبط فى وقته بأهداف سياسة لا أهداف دينية نوضحها فيما يلى :

أولا : لو جارينا الأساطير لكان لنا أن نتساءل عن إسم "عثمان" نفسه والذى لم يكن دارجا بين أسماء المنطقة ، والأمر هنا لا يتعلق بشخصه وإنما بتسميته عند مولده . كما أن قراءة عثمان للقرآن فى بيت "إده غالى" تشير إلى أنه كان مدركاً لجانب من الثقافة العربية الإسلامية ، وحتى لو كان قد استعان بالشيخ الزاهد فى القراءة فإن ذلك لا ينفى عنه صفة التأثر بهذه الثقافة من باب التجاوب السريع معها الذى بسببه أعلن إسلامه .

ثانيا: أن هجرة هؤلاء القوم من آسيا الوسطى إلى الأناضول قد استغرقت مدة زمنية طويلة مروا خلالها على شعوب كانت قد اعتنقت الإسلام منذ فترة سابقة عليهم ،

وإن لم يكن هؤلاء الأتراك على دراية سابقة بالإسلام لعرفوه من خلال احتكاكهم ومعايشتهم لهذه الشعوب قبل وصولهم إلى الأناضول .

ثالثا: أن "إده غالى" أو" أدب غالى " – حسبما تشير بعض المراجع العربية – الذى تزوج "عثمان" ابنته كان إلى جانب كونه شيخاً لإحدى الطرق الصوفية شخصية مؤثرة على مجموعة من الآخيين من أصحاب الحرف الذين كانوا يعلنون حماسهم للجهاد وهم فى حقيقة الأمر يسعون لرواج حرفهم ، وكان " عثمان "يدرك أن هذه الجماعات ستعينه على تدعيم مكانته وتحقيق طموحة فى السعى للاستقرار فى أمارتة الجديدة حيث لم يكن يستطيع أن يحقق ذلك الاستقرار لفرسان قبيلتة وحدهم الذين لم يزد عددهم على أربعمائة فارس ، لذلك وجد " عثمان" أنه من الحكمة أن يعلن إسلامة على يد " أدب غالى " وأن يتزوج أبنتة كى يحظى بتأييد العناصر المحلية ، وكان هذا الإعلان بمثابة عهد بينه وبين الشيخ أصبح "عثمان" بعده يمثل القوى الحربية السياسية والدينية التى أستمدها من الشيخ ، فى حين ظل الشيخ يمثل القوى الدينية المدعمة لهذه القوى وزيادتها بمجاهدين .

رابعا : أن " عثمان " قد أصبح حاكماً أقطاعياً منذ بداية وجوده فى منطقة "سكود" فى شمال غرب الأناضول ، شأنه فى ذلك شأن بقية أمراء السلاجقة ، وأن فرسان قبيلتة ظلوا على ولائهم له بصفته شيخ القبيلة وأن أعتناقهم للإسلام على منهج التصوف كما كان سائداً فى بقية الإمارات السلجوقية وبقية المناطق الإقطاعية فى العالم الإسلامى ، لم يقلل من سلطتة على قبيلته بل على العكس دعمها بحكم التلاقى بين وحدة القبيلة ووحدة الطريقة الصوفية ، ولهذا أتسمت سياسة

العثمانيين منذ البداية بتشجيع التصوف وساعدت على إنتشار طرقه حرصا على دعم حركة الجهاد والحفاظ على سلامة النظام فى نفس الوقت .

خامسا: أن إعلان"عثمان" لإسلامه ، وأخذه بنظام الحكم الإسلامى أو محاولته صبغ حكمه به ، لم يكن ليقلل من سلطته المطلقة على قبيلته وأتباعه الذين انضموا إليه بعد هذا الإعلان ، بل كان مؤكداً لمزيد من الولاء له كقائد أو أمير، فقد كان شكل نظام الحكم الإسلامى الذى كان سائداً فى هذه الفترة يلتقى مع شكل النظام القبلى، وهو أمر دعا المؤرخ الإنجليزى" توينبي" لأن يؤكد- من حيث الشكل- بأن العثمانيين قد حكموا ، وحكموا الشعوب التى خضعت لهم ، بأسلوب بيئتهم الأولى فى أواسط آسيا ، وأدى اعتناقهم للإسلام إلى كسب الصفة الثيوقراطية التى لم تغيّر من هذا الأسلوب شيئا (١) .

سادسا: أن إعلان "عثمان" لإسلامه لم يكن ليغير من أسلوبه أو أهدافه فى السعي للتوسع على حساب الدولة البيزنطية والاستقلال عن الإمارات السلجوقية الباقية بل على العكس فإنه أضفى عليه صفة الجهاد والفتح بدلا من السلب والنهب والقتل وغيرها من الصفات التى كانت تطلق على علاقات الإمارات السلجوقية الأخرى لاقتتالها فيما بينها دون توحدها ضد القوة البيزنطية .

سابعا :أن " عثمان" كان يهدف من وراء إعلان إسلامه أن يؤمّن ظهره من جهة الإمارات السلجوقية المسلمة إذا ما وجّه قوته للتوسع على حساب الدولة البيزنطية ، فضلا عن أنه كان سيضفي شيئا من الشرعية على دوره إذا ما سعى لاحتواء الإمارات السلجوقية المتاخمة له بقصد توحيدها ووقف اقتتالها وهو ما حدث بالفعل حين

(١) د. عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ج١،ص٥١-٥٤.

قام المغول بالقضاء على دولة الأتراك السلاجقة سنة ٧٠٠هـ/١٣٠٠م التى أعقبها وفاة الأمير علاء الدين سنة ٧٠٧هـ/١٣٠٧م حيث أعلن" عثمان" حينذاك استقلاله بل وضمه لجزء من هذه الدولة .

طبيعة إسلام العثمانيين :

أما عن شكل الإسلام الذى اعتنقه الأتراك العثمانيون فى آسيا الوسطى ، فكما سبق التوضيح قد تم قبولهم له على يد مشايخ ودراويش الطرق الصوفية ، ولم يكن يعنى قبولهم لهذا الدين تخلّصهم أو تخلّيهم عن كثير من العادات والتقاليد والمعتقدات القديمة المرتبطة بهذه المعتقدات كالشامانية والبوذية والهندوكية والمانوية والزرد شتية واليهودية والنصرانية ، كما أن العناصر المحلية التى كانت فى الأناضول قد تأثرت هى الأخرى بالعادات والتقاليد المرتبطة بعقائدهم سواء الإسلامية أو السابقة على اعتناقهم الإسلام مثل العناصر الفارسية التى اختلطت فيهم تقاليد عقائدهم مع توجهاتهم الشيعية والتى تأثرت بها بعض العناصر التركية فى الأناضول ، كما أن هذه العناصر قد تأثرت بعادات أهل السنة من خلال العناصر المسلمة التى وفدت إلى الأناضول من المشرق العربى الإسلامى ، وقد أدى هذا كله إلى اختلاط كل هذه العادات والاتجاهات والتوجهات بحيث تكوّن مزيج من المعتقدات كان له أثره على العناصر المسلمة فى هذه المنطقة عند مجئ العثمانيين إليها واستقرارهم بها (١) .

ومن أهم الطرق الصوفية التى انتشرت فى الأناضول فى هذه الفترة المولوية أو الجلالية التى أسسها الشاعر الفارسى جلال الدين الرومى ، والرفاعية الخلوتية

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى : فى أصول التاريخ العثمانى ، ص١٥.

واليسوية والقلندرية التى أثرت فى بعض الأتراك العثمانيين قبل وصولهم إلى الأناضول والتى كانت منتشرة فى خراسان والمناطق المجاورة لها.

ويصعب الحسم بأن هذه الطريقة – أى القلندرية – قد تأثرت بالمذهب الشيعي بشكل واضح لكنها قد أثارت الطرق الصوفية السنية وبخاصة فى الأناضول وذلك لغرابة طقوسها ولما دعت إليه من إباحية إلى جانب المظهر الشاذ لأتباعها وهو ما دعا الكثير من صوفية الأناضول أن يتهم أهلها بالزندقة والهرطقة (١) . ولعل هذا الأمر هو الذى دعا أتباعها من العثمانيين ألا يعلنوا ارتباطهم بها عند وصولهم للأناضول حتى ينعموا بقبول العناصر المحلية وتأييدها لهم ، بل ربما كان ظهور ارتباط بعضهم بها هو الذى أدى إلى اعتبارهم فى نظر البعض من العناصر المحلية من الوثنيين وأن بداية ارتباطهم بعهد جديد مع الشيخ" إده بالى" وعلى طريقته هو بداية أفضل لاعتناقهم الإسلام ، وهو ما اعتبره مؤرخ مثل " جيبونز" أنه تحول من الوثنية إلى الإسلام .

وقد ابتعد العثمانيون عن هذه الطريقة ـ القلندرية ـ وارتبطوا بطرق أخرى كالمولوية ثم البكتاشية بعد استقرارهم ، وإن كان استمرار ارتباط بعضهم بها قد دعاهم بعد استقرارهم لأن يشجعوها ويحافظوا على وجودها بين الطرق الصوفية التى راجت فى عهدهم وبخاصة أن الطرق الأخرى كالبكتاشية وغيرها قد تخللتها كذلك العديد من التجاوزات البعيدة عن النهج الصحيح في نظر البعض من أهل السنة من المسلمين . كما أن الشدة التى قوبلت بها الطريقة القلندرية فى الأناضول كانت ترجع فى الأساس إلى

(١) محمد فؤاد كوبريلى: قيام الدولة العثمانية ص١٧١؛ ابن العجيمى ، محمد بن حسن: خبايا الزوايا، مخطوط رقم ٧ محفوظ بمكتبة الحرم المكى، نسخ عبد الستار دهلوى سنة ١٣٣١هـ- ص ١٩٣،١٩٤. حيث يذكر فى ترجمته للشيخ حسين المجدوب الهندى(ت سنة ١٠٨٠هـ) الذى كان على الطريقة القلندرية أن أهل هذه الطرقة قد بنو أمرهم على طيب القلب بالحضور، وأكثرهم يستتر بتعاطى ما يستقبح، وقد لا يشاهد منهم من لا يواظب على الصلاة فضلا عن النوافل.

تمردها على النظام الاجتماعى والأخلاقى أكثر من كونها تميل فى بعض جوانبها إلى الإلحاد أو فى بعضها الآخر إلى الأفكار الشيعية (١).

الإسلام وأثره فى تأسيس الدولة العثمانية

لا شك أن عناصر الدراويش الصوفية قد لعبت دوراً رئيسياً فى تأسيس الكيان السياسى للدولة العثمانية من بدايته ، وإذا كان المؤرخ التركى " محمد فؤ د كوبريلى" قد أكد بالأدلة القاطعة على دور هذه العناصر فى تأسيس هذا الكيان فى معرض رده على المؤرخ الانجليزى "جيبونز" الذى يرى أن العناصر النصرانية " المسيحية " التى دخلت فى الإسلام هى التى كان لها الدور الرئيسى أكثر من العناصر الإسلامية وبخاصة فيما يتعلق بالتنظيمات الإدارية فى الدولة ، وكذلك العناصر الانكشارية – وهى من الغلمان النصارى الذين كانوا يدخلون الإسلام من الصغر نتيجة اختطافهم أو أسرهم أو بيعهم . فيرى المؤرخ الانجليزى أن هذه العناصر قد لعبت دوراً رئيسياً فى كبر الدولة ونموها وتوسعها .

والحقيقة أن العناصر الإسلامية القديمة وفى مقدمتهم دراويش الصوفية وعناصر الآخيين ، وهم من الصوفية أيضا ، هم الذين أسهموا فى بناء الكيان السياسى العثمانى وحتى فى تطوره وتوسعه ، فلا يمكن تصور قيام هذا الكيان على أسس إسلامية ، ثم تحمسه الزائد للعمل باسم الإسلام وتحت رايته ، على أكتاف عناصر جديدة العهد بالإسلام كالعناصر النصرانية ، أو دخلت فيه بالإكراه كالانكشارية ، ولعل هذا الأمر هو الذى دعا للبحث عن الجذور الإسلامية للعثمانيين قبل مجيئهم إلى الأناضول والتأكد من وجودها . وإذا كان بعض الكتّاب الأجانب قد استدل على وجود بعض العناصر النصرانية

(١) حول هذه الجوانب أنظر :د/ حسين مجيب المصرى : صلات العرب والفرس والترك ، الأنجلو المصرية سنة ١٩٧١م ،ص ٣٩١ و ما بعدها ؛ كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ط ٨، ص ٤١١.

التى استعان بها "عثمان" كأحد القادة البيزنطيين المرتدين عن النصرانية ، وأفاده فى بعض التنظيمات الإدارية والحربية فإن هذا الأمر كان عارضاً ومحدوداً ولم يكن ظاهرة عامة تستوجب التعميم (١) .

وبشكل عام فإنه حين استقر المقام بالأتراك العثمانيين فى منطقة سكود فى الشمال الغربى من الأناضول لم تكن هذه المنطقة خالية تماما من السكان وإنما تجمعت بها عناصر خليطة أغلبها من الأتراك وكان من بينها "إده بالى" الذى كان يتزعم إحدي الطرق الصوفية (٢) .

كما أن العثمانيين قد سمحوا لكثير من العناصر الصوفية المهاجرة والتى لم تستوعبها الإمارات السلجوقية الأخرى بدخول منطقتهم بقصد معاونتهم على الاستقرار والتوسع ، ومن هذه العناصر المحلية والوافدة . تكوّن الشعب العثمانى . وقد غلب على هذه العناصر أسلوب الفتوة الذى يتصل بطبيعة بيئتهم الأولى قبل هجرتهم وفرضته ظروف السعى للاستقرار والتوسع ومجاورة الدولة البيزنطية ، وسموا بالآخيين (٣) .

وكانت عناصر الآخيين قد ازدادت فى الأناضول ، وتكوّن منها العديد من طوائف الحرف والصناع ، وقد أثارت هذه العناصر الرحالة المغربى " ابن بطوطة " حيث وصفهم بأنهم لا يوجد فى الدنيا مثلهم احتفالا بالغرباء والأخذ على يد الظلمة وقتل الشرط ومن لحق بهم من أهل الشر ، ووصف حياتهم بأنهم يخدمون بالنهار فى طلب معايشهم ويشترون بما يكسبون الفواكه والطعام لهم ولضيوفهم ثم يغنون ويرقصون ويعودون إلى صناعتهم فى

---

(١) د. عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية ط ص ٤١.

(٢) كارل بروكلمان : المرجع السابق ،ص٤٠٨.

(٣) الآخيون تعنى فى رسائل الصوفية أخوة أوأخوان ، ويرى بعض المستشرقين أنها لفظة تركية من لفظ (آقى)... بمعنى السخى لكن بعض الباحثين يساوى بينها وبين العيارين والغزاه والفتيان وتختلف بأختلاف البينات فقط .

اليوم التالى وهكذا ، كما وصف زواياهم بأنها كانت مفروشة بالبسط الرومية الحسان وبها كثير من ثريات الزجاج العراقى وفى المجلس خمسة من البياسيس – وهى منارة من النحاس- إلى غير ذلك (١) .

وقد انتشرت بينهم الطرق الصوفية بشكل جعل هناك التقاء بين وظيفة شيخ الحرفة وشيخ الطريقة (٢) ، ووضع لهم العثمانيون أنظمة بين العامل وصاحب العمل قريبة من علاقة المريد بالشيخ ، وبعد اتساع نطاق هذه الطوائف من خلال تدفق عناصر إسلامية وافدة تكونت منهم جماعات قوية سميت بالإخوان استطاعت أن تسيطر على مقدرات الدولة العثمانية فى القرن السابع الهجرى النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى ، وتوحدت فيها العديد من الحرف إلى جانب العلماء والمشايخ الذين أصبحوا من رجال الدولة .

ولما كانت هذه الفئات قد ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالطرق الصوفية فإنها لم تهدد نفوذ النبلاء والإقطاعيين فى الكيان العثمانى ، بل بالعكس نال شعراؤهم الدعم من النبلاء العثمانيين من أمثال "أحمد يسوى" مؤسس الطريقة اليسوية التى انتشرت فى الأناضول فى القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى .

ومن جهة أخرى فإن الطرق الصوفية قد شملت كافة شرائح المجتمع العثمانى سواء الطبقة الأرستقراطية أم البورجوازية أم العامة ، فحافظت بذلك على سلامة النظام وأن الخلاف بينها قد اقتصر على الأسلوب فقط . وكانت الطبقة الوسطى أكثر تقبلا

---

(١) ابن بطوط : تحفة الأنظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار – دار الكتاب اللبنانى،ص١٩١،١٩٠. ويلاحظ أن ابن بطوطة فى مديحه لهذه الفئات كان متأثرا بانتمائه الصوفى فى المغرب.

(٢) محمد فؤاد كوبريلى : المرجع السابق،ص١١٠،١٠٩.

لعديد من اتجاهات الطرق الصوفية كالرفاعية والمولوية وغيرها (١). كما كانت هذه الطبقة من أكثر الفئات حماسا لتأسيس الدولة العثمانية وتوسعها وذلك لكونها قد استفادت من حصولها على الغنائم وكذلك استثمارها واتساع حرفها وتجارتها فى البلاد المفتوحة (٢)، ولهذا تكونت منها طلائع الفرسان فى الجيش العثمانى وبعض عناصر المشاة (٣).

أما جماعات الدراويش فى الريف العثمانى فكانت مدفوعة لتوسيع رقعة الأرض الزراعية لتحسين مستوى معيشتها واستقرارها، إلى جانب حبها للفتوة والجهاد من أجل الدعوة للدين، لذلك التقت كافة الشرائح على دفع الأتراك العثمانيين للاستقرار والتوسع على حساب الدولة البيزنطية، وأسهمت هذه العناصر الإسلامية جميعها فى تأسيس الكيان العثمانى (٤).

على أن ما ينبغى مراعاته – وفقا لذلك – هو أن الانصهار والاندماج بين العناصر المسلمة الخليطة قد أكد أن" العثمانية" كمصطلح أطلق على الدولة الإسلامية الجديدة كان يشكل أساساً دينياً سياسياً وليس أساساً عرقياً جنسياً قومياً (٥)، وأن إطلاق مصطلح " الأتراك العثمانيون" على هذه الدولة بعد استكمال تأسيسها أصبح بعيداً عن الموضوعية وأن إسم الدولة العثمانية هو المطابق لطبيعة التأسيس، ولعل فى ذلك رد على محاولة

(١) د. حسين مجيب المصرى: المرجع السابع، ص ٤١٨.
(٢) كارل بروكلمان : المرجع السابق ، ص٤٠٨.
(٣) محمد علاء منصور: جماعات الفتوة فى العصرين السلجوقى والعثمانى فى مصادرها الفارسية ، رسالة دكتوراه غير منشورة – آداب القاهرة سنة ١٩٨٢م ،ص٦٩،٦٨.
(٤) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق،ص٢٩.
(٥) المرجع السابق،ص٣٢.

المؤرخ " جيبونز" الذى رأى أن العنصر العثمانى قد تكوّن نتيجة اختلاط العناصر التركية بالإغريق أو النصارى.

على أن ذلك لا ينفى انخراط بعض العناصر الإغريقية النصرانية فى الدولة العثمانية عند بداية تأسيسها ، لكنها لم تكن تشكّل عنصراً غالباً أو حتى مؤثراً فى هذا التأسيس . كما أن بعض هذه العناصر قد أعتنقت الإسلام ، وإن كان ذلك . كما ذكر المؤرخ التركى كوبريلى . قد تم ببطء وبنسبة محدودة إبان تكوّن الدولة العثمانية وقبلها إبان العهد السلجوقى وهو أمر يستدل عليه من أرتفاع نسبة الجزية التى كانت تجبى منهم فى القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى (١) . كما أن هذه النسبة من السكان النصارى قد ظلت مرتفعة حتى فتح القسطنطينية الأمر الذى يؤكد ارتباط قيام الدولة العثمانية بالعناصر الإسلامية الوافدة والمنصهرة مع العناصر التركية أكثر من ارتباطها فى أى جانب بعناصر النصارى .

(١) أحمد السعيد سليمان : الدولة العثمانية، ص١٣.